40 - السيدة حمنة بنت سفيان

أم سعد المسلم

اسمها حمنة، والدها سفيان بن أُمية، وابن عمها أبو سفيان بن حرب، تزوَّجت في الجاهلية مالك بن أُهيب، وهو أبو وقاص، فولدت له بعض الأولاد من بينهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، ومن السابقين الأوائل إلى الإسلام.

لقد رأى سعد نفسه في المنام يسبح في ظلام كثيفٍ، وفجأة أضاء له قمر، فنظر أمامه، فوجد ثلاثة قد سبقوه، فلما حدَّقَ إليهم عرفهم، إنهم أبو بكرٍ الصِّدِّيق، وعلي بن أبي طالبٍ، وزيد بن حارثة ﷺ.

ولاحظت حمنة أن ابنها قد استيقظ على غير عادته فهو بادي القلق، ولما سألته عما به، قال: لا شيء، وسألته: هل قدَّمت واجبات الولاء اليومية للآلهة؟ فردَّ عليها بتثاقلٍ: لا، لا، وشرد سعد، وسرح بفكره، وراح يسأل نفسه: ما الذي تعنيه هذه الرؤيا؟ ولِمَ سبقني هؤلاء الثلاثة؟

وذهب سعد إلى عمله في بري السهام، وبعد قليلٍ أقبل إليه ثلاثة من فتيان قريش وخيرة شبابها ممن أُولعوا بالصيد ليبري لهم سهامهم، فقضى لهم حاجاتهم، وفكره لا يزال مشغولاً بتلك الرؤيا التي رآها في ليلته الفائتة، وما إن انصرفوا عنه، حتى أتاه أبو بكرٍ وقبل أن يهمَّ سعد بإخباره عن رؤياه حتى يعبِّرها له، بادره أبو بكرٍ بقوله: اسمع يا سعد، لقد جئتك في أمرٍ ذي بال، قال: أي أمرٍ هذا؟ قال أبو بكر: إنك خال محمد بن عبد الله، وأنت أعلم الناس بصدقه وأمانته، قال سعد: ليس محمد عندي بمتهم، قال أبو بكر: لقد نزل عليه الوحي وأخبره أنه نبي هذه الأمة، وأمره بدعوة الناس إلى عبادة الله وحده.

قال سعد: وهذه الآلهة، ما يصنع بها؟ قال أبو بكر: إنها أصنام لا تُبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع قال سعد: وهل تبعه أحد؟ قال أبو بكر: أجل أنا وعلي وزيد.

وذكر سعد رؤيا الأمس، نعم، إنهم الثلاثة الذين رآهم في منامه، إنه حقيقة وليس بمنامٍ إذن، وطلب سعد من أبي بكر أن يصحبه إلى رسول الله ﷺ في الحال، وبعد أن سلَّما عليه، نطق سعد بكلمة التوحيد، وشعر براحةٍ واطمئنانٍ لم يشعر بمثلهما من قبل، وبدأ سعد مسيرته مع الإسلام.

كان سعد شديد البر بأمه، حتى إنه كان يطعمها بيديه، وكان حبه المفرط لها يمنعه من إغضابها، والتفكير في إيذائها، كان سعد مواظباً على القرب من رسول الله ﷺ والجلوس إليه لينهل من نفحاته المباركة، ويسمع حديثه العذب، ويعبُّ من نبع حكمته الصافية.

وذات يوم صفَّ سعد قدميه بين يدي الله، وراح يصلي إليه ويدعوه، وفيما هو مستغرقٌ في صلاته دخلت عليه أمه حمنة وأخذت تتساءل: بأي شيْءٍ يحرِّك شفتيه، وما الذي يقوله في ركوعه وسجوده؟ وإلام يسجد وليس من صنم أمامه؟ ثم إنها اعتادت إذا دخلت عليه أن يبادر إليها ويكلمها، فما الذي يشغله الآن عن أمه التي يحبها؟ ودنت منه، وأخذت تحدِّثه، ولكنها لم تحظ بجوابٍ، وكرَّرت سؤالها: ماذا تفعل يا سعد؟ وأي شيءٍ يمنعك من أن تردَّ عليَّ؟ وحين أخذ الغضب منها كل مأخذ كان سعد قد فرغ من صلاته، فالتفت يمنة، ثم التفت يسرة، ثم أقبل عليها وقال: كنت في صلاة يا أمي، وما ينبغي لي أن أقطعها.

قالت حمنة: وأين الصنم؟ لقد سجدتَ وما من صنم أمامك!! قال: كنت أصلي لله رب العالمين يا أماه قالت: ومن رب العالمَين؟ قال: الذي خلق السماوات والأرض، وخلقنا، وخلق كل شيء، قالت: أَوَتَسجد لغير

اللات والعُزَّى يا سعد؟ قال سعد: اسمعي يا أماه، إنها حجارة صمٌّ لا تضر ولا تنفع قالت: ما الذي أصابك يا سعد؟ أتدع آلهة آبائك، وتُسفِّه أحلامهم؟ ما أراك إلاَّ قد فقدت رشدك!!

ما صدقتِ يا أم سعد، لقد فقد سعد رشده يوم كان يقف أمام حجرٍ يناجيه ويتضرَّع إليه، وهو لا يملك إليه ضرّاً ولا نفعاً، ولكنه اليوم قد استعاد رشده حين وقف أمام من يبصر ويسمع، ويضر وينفع، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويفرّق ويجمع، ويصل ويقطع، الخالق الرازق، من ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير.

إصرارها على دعوة ابنها للشرك

وأخذت حمنة تلح على ابنها سعد في ترك هذا الدين الجديد، والقيام على دين آبائه حتى لا يكون جاحداً لفضلهم، ولكن هيهات!! إن إيمان سعد أصبح أقوى من راسيات الجبال، فالجبال قد تتيسَّر إزاحتها، وتسهل إزالتها، ولكن إيمان سعد لا سبيل إلى انتقاص نقطة من بحره البعيد الأغوار.

ولما أسرفت حمنة على سعد في إلحاحها أراد أن يحسم الأمر معها، فقال لها: يا أمي، تعلمين كم أحبك، وكم أتمنَّى لك الخير، ولهذا أدعوك إلى الدخول في هذا الدين، لأبعدك عن النار المعدَّة لمن لا يعتنقونه، وباتوا على كفرهم مصرِّين، فقالت له: اسمع يا سعد، لئن أصررت على عنادك، فإني لن آكل ولن أشرب حتى أموت، فتُعيَّر بي، قال: لا تفعلي ذلك يا أمي، فتضري نفسك دون أن تحصلي مني على ما تريدين، فإني لست بتاركٍ ديني مهما فعلت، ولو كانت لك مئة نفسٍ فخرجت الواحدة تلو الأخرى، لما رجعت إلى الكفر بعد الإيمان، وكيف أرجع إليه بعد أن نجَّاني الله منه وهداني سبيل الرشاد؟!

وقد حَدَّثَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ قَالا: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنِي مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لا تُكَلِّمَهُ

أَبَداً حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ وَلاَ تَأْكُلَ وَلاَ تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا، قَالَ: مَكَثَتْ ثَلاَثاً حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ: عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: 8] ونزل قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ [لقمان: 15] وفيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]. قَالَ: فَكَانُوا إِذَا أَرَادوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا بِعَصاً ثُمَّ أَوْجَرُوهَا.

ابتعاد ابنها عنها وهجرته

قال: وأصاب رسُولُ اللهِ ﷺ غَنِيمَةً عَظِيمَةً فَإِذَا فِيهَا سَيْفٌ فَأَخَذْتُهُ فَأَتَيْتُ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ فَقُلْتُ: «نَفِّلْنِي هَذَا السَّيْفَ، فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ حَالَهُ» فَقَالَ: «**رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ**» فَانْطَلَقْتُ، حَتَّى إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهُ فِي الْقَبَضِ لامَتْنِي نَفْسِي فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقلْتُ: أَعْطِنيهِ، قَالَ: فَشَدَّ لِي صَوْتَهُ: «**رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ**» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: 1].

قَالَ: وَمَرِضْتُ فَأَرْسَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَانِي، فَقُلْتُ: دَعْنِي أَقْسِمْ مَالِي حَيْثُ شِئْتُ، قَالَ: فَأَبَى، قُلْتُ: فَالنِّصْفَ، قَالَ: فَأَبَى، قُلْتُ: فَالثُّلُثَ، قَالَ: فَسَكَتَ، فَكَانَ بَعْدُ الثُّلُثُ جَائِزاً.

قَالَ: وَأَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ، فَقَالُوا: تَعَالَ نُطْعِمْكَ، وَنَسْقِكَ خَمْراً، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُمْ فِي حَشٍّ[1]، فَإِذَا رَأْسُ جَزُورٍ مَشْوِيٌّ عِنْدَهُمْ وَزِقٌّ مِنْ خَمْرٍ.

قَالَ: فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ مَعَهُمْ، قَالَ: فَذَكَرْتُ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ عِنْدَهُمْ، فَقُلْتُ: الْمُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَخَذَ رَجُلٌ أَحَدَ لَحْيَيْ

(1) الْحَشُّ: الْبُسْتَانُ.

الرَّأْسِ، فَضَرَبَنِي بِهِ، فَجَرَحَ بِأَنْفِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيَّ - يَعْنِي: نَفْسَهُ - شَأْنَ الْخَمْرِ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: 90].

وَحَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَمُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ قَالاَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: أُنْزِلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِمَعْنَى حَدِيثِ زُهَيْرٍ، عَنْ سِمَاكٍ، وَفِي حَدِيثِهِ أَيْضاً: فَضَرَبَ بِهِ أَنْفَ سَعْدٍ فَفَزَرَهُ، وَكَانَ أَنْفُ سَعْدٍ مَفْزُوراً[1].

وكان سعد لا يتخلَّف عن الصلاة خلف رسول الله ﷺ وحضور مجالسه والجهاد معه، ويوم أُحد كان سعد واحداً من الصحابة الذين صمدوا مع رسول الله ﷺ، وفاز من رسول الله ﷺ بدعوة مباركة طيبة فيما رواه الترمذي عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إِذَا دَعَاكَ**».

قَالَ أَبُو عِيسَى: وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إِذَا دَعَاكَ**»[2].

كما روى عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُفَدِّ أَحَداً بِأَبَوَيْهِ إِلا لِسَعْدٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ: «**ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**» وَقَالَ الترمذيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ»[3].

---

(1) رواه: مسلم/ كتاب: فضائل الصحابة/ باب: فضائل سعد بن أبي وقاص/ برقم: (4432).

(2) رواه: الترمذي/ كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ/ باب: مناقب سعد بن أبي وقاص/ برقم: (3684).

(3) رواه: الترمذي/ كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ/ باب: مناقب سعد بن أبي وقاص/ برقم: (3688).

إسلامها

ولما كان يوم فتح مكة دخلها سعد مع رسول الله ﷺ، وجاءت ثلة من النساء لمبايعة النبي ﷺ، وقرَّت عين سعد حين رأى والدته حمنة بنت سفيان بين المبايعات، فاشترت نفسها من النار، وماتت على الإسلام، رحمها الله تعالى.